تمهيـــد

القصـــة العربيـة .. نشـأتها وتطـورها

نشـأت القصـة فـى رحـم الكـلام ، مـن خـلال الحيـاة العاديـة للإنسـان والأحـداث اليومية ؛ التى يتناولها مع غيره من أبناء مجتمعه فى صورة قصصية ، فكانـت القصـة " أول رفيق صحب الإنسان منذ خطواته الأولى على الكوكب الأرضى ، فآنس وحشته ، ويصل ما بين عالمه المائج فى كيانه" [١] . وإن كان القصد الفنى فيها لم يكن قد خطر ببال الإنسان لقد صنع الإنسان الأسطورة ، وهو لا يعى أنها ستصبح لوناً فنياً ، فقد صنعها من خلال تفسيره للعالم ، وجد ذلك عند اليونان الذين صاغوا الملاحم والأساطير حول آلهتهم ؛ آلهة الحب والجمال ، الموت والحياة ... و" السحاب والمطر ، والرعد والبرق ، والريح والنار ، ... كل أولئك جميعاً وكثير غيرهن مما فى هذا الوجود من موجودات ، كان عند الإنسان الأول عوالم مجهولة ترمى إليه بالحيرة ، والرهبة والفزع " [٢] ، " فالفن القصصى كان فى أشكاله الأولى إحدى ظواهر المجتمعات وهى تحاول أن تستقر " [٣] . بالإضافة إلى أن علاقة الإنسان بغيره تجعل هناك أحداثاً شبه يومية ، يتطلع الإنسان إلى معرفتها من خلال احتكاكه بالآخرين ، " فالإنسان ينزع بطبيعته إلى القصص وهو يحاول إسباغ معنى على الأحداث اليومية أو يحاول أن يمنطقها أو يجد بينها رابطاً يجعل منها سلسلة متصلة الحلقات " [٤].

١- دكتور عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، (القاهرة ، دار الفكر العربى ، د . ت) ص ٣ .

٢- المرجع السابق ، ص ٣ .

٣- دكتور مصطفى عبد الشافى الشورى ، التراث القصصى عند العرب ، ط٢ (القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة " ذاكرة الكتابة " ١٩٩٩ م) ، ص ٢٣ .

٤- دكتور محمد عنانى ، الأدب وفنونه ، (القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م) ، ص ٦٨ .

منذ بدأ الإنسان حياته الأولى وهو يواجه الطبيعة بظواهرها ورعودها وكوارثها ، " ومن الطبيعى أن تحاول تلك الشعوب – أى القديمة – برغم جهلها تفسير أسباب تلك الكوارث ، علها تستطيع بذلك أن تدفع عن نفسها شرها وأذاها ، ومن الطبيعى – كذلك أن يقوم تفسيرها هذا على الوهم والخرافة ، وأن يتطور فيتخذ شكل القصة " [١]. " فحافز الإنسان لرؤية القصص وحاجته لسماع تلك القصص جعلت من الحكاية الرفيق الطبيعى للإنسان

عبر تاريخ الحضارة " [٢]".

ويظن أن تداول الشكل القصصى تدرج ، كما تدرج الكلام ، حيث ترى نظريات علم الجمال أنه تدرج من النافع إلى الجميل [٣]. فالكلام تدرج عند الإنسان من وسيلة اتصال بينه وبين أفراد مجتمعه ، إلى أن أصبح أشكالاً أدبية لها قواعدها وفنياتها التى يحددها كل مجتمع حسب ثقافته .

كذلك القصة عند العربى – كإنسان – ولدت معه ، حيث " لا يكاد يتصور أن تخلو حياة إنسان من قصة ، أو عدة قصص ، ذلك أن الأحداث المثيرة ، والمواقف الحرجة المتأزمة هى النطف التى تتخلق منها القصص " [٤].

درجت القصة عند العربى منه إليه ، ومنه به .

١- محمد مفيد الشوباشى ، القصة العربية القديمة ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، " سلسلة مكتبة الشباب " ١٩٩٧) ، ص ٧ .

٢- دكتور قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ والفلكلور ، ط ٢ ، (القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة " مكتبة الدراسات الشعبية " ١٩٩٧ م) ، ص ٤٠

٣- انظر : دكتور عبد المنعم تليمة ، مقدمة فى نظرية الأدب ، (القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، " سلسلة كتابات نقدية " ، ١٩٩٧ م) ، ص ١٣ وما بعدها .

٤- دكتور عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآنى ، ص ١٤ .

منه إليه ؛ من إحساسه ، من كلامه العادى ، وحديثه الذى جاء لابساً صورة القصة ، وإليه ... تحمل فى طياتها تسلية ومتعة ، وحكمة ... . فالقصة عند البعض " تقوم بعمل اجتماعى إلى حد ما هو على الأقل إشباع الغرائز المكبوتة " [١] .

ودرجت القصة عند العربى .. منه به ، من عقله المفكر الذى ربط بين جمل الحدث وصنع هدفاً واتجاهاً يرغب فى الوصول إليه ، وبه ... بتعمقه فى استخدام هذا الاتجاه وبإجالة العقل فى التركيب التى أنتجها بالفطرة أو بالتعمد ، فهذا عادى وهذا فنى ، ومن ثم تدرج إلى مرحلة الانتقاء بعد الشمول ، فراقت له نماذج ولم ترق له أخرى .

والعربى فى استخدامه للقصة اختلف عن غيره من أبناء الأمم الأخرى ، " حيث بدأت الأمم الأخرى تاريخها بالأسطورة ، والعرب عكس ذلك " [٢]. إذ اعتمد العرب على الأحداث الواقعية ، " واتخذوا من الحوادث الجارية والأحداث السابقة مادة لقصصهم ومن هنا وجدت قصص الأيام التى تحكى تاريخ الحروب الجاهلية " [٣] . إذ " روى الرواة حول هذه الأيام قصصاً " [٤].

ومن هنا فإن اهتمام العربى ، ظل إلى فترة متأخرة يأخذ الشكل الطبيعى الفطرى الذى يعتمد على الواقع ، " ذلك لأن واقع الحياة البدوية وما فيها من قهر وقسوة قيد العرب فى دائرة الواقع ، فلا يتعدونه ولا يخرجون عنه بحال " [٥] . وهذا ما دعا البعض إلى إنكار وجود فن القصة عند العرب [٦] .

١- دكتور أحمد كمال زكى ، الأساطير / دراسة حضارية مقارنة ، ط ٢ ، (القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة " ذاكرة الكتاب " ، ٢٠٠٠ م) ، ص ٩٨ .

٢- محمد مفيد الشوباشى ، القصة العربية القديمة ، ص ٨ .

٣- دكتور على الجندى ، فى تاريخ الأدب الجاهلى ، ط ٢ ، (القاهرة ، دار المعارف) ، ص ٢٠٩ .

٤- دكتور عبد الحميد إبراهيم ، قصص العشاق النثرية ، ص ٣١ .

٥- دكتور عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآنى ، ص ٢٥ .

٦- عرض الدكتور عبد الحميد إبراهيم لآراء هؤلاء المنكرين فى كتابه " قصص العشاق النثرية ، ص ١٩ وما بعدها" بعدها"

ولا يعتقد أن منكرى وجود القصة عند العرب محقون فى هذا ، فالقرآن الكريم حين نزل ، خاطب العرب بلغتهم وأسلوبهم ، فجاء فى صورة سرد لقصص الأولين . " ولا شك أن القرآن الكريم لم يجىء إلى العرب بشيء بعيد عند مدركاتهم أو غريب عن تصوراتهم ، وإنما جاء إلى القوم وبينه وبينهم نسب قريب ، ورحم ماسة فهو بلسانهم الذى ينطقون ، وعلى أسلوب فصاحتهم " [1] .

ولذا ذهب الدكتور عبد الكريم الخطيب إلى أنه يمكن أن نتوقع سلفاً وجود القصة فى الحياة العربية قبل الإسلام ، وفى الأدب العربى الجاهلى شعراً ونثراً ... " إذ ليس من المعقول أن يأخذ القصص هذا المكان البارز فى القرآن كتاب العرب الأعظم ثم لا يكون عندها رصيد من القصص الذى نسجته من واقع حياتها أو من أطياف آمالها وأحلامها " [2].

والذى يؤكد أن العرب أنفسهم كان لديهم المخزون القصصى الذى اختزنوه من قصص الأولين ، لذا كانوا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن تلك القصص ، يقول تعالى : " وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ... " [3] ، وما كان سؤالهم هذا سؤال جهل وإنما كان سؤال اختبار وتقييم للرسول – صلى الله عليه وسلم - ، فإن كان حقاً – كما يقول – يأتيه وحى السماء ، فليخبرنا بهؤلاء الأولين وليقص علينا أحوالهم ، كان هذا لسان حالهم .

١- دكتور عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآنى ، ص ١٣ .
٢- المرجع السابق ص ١٤ .
٣- سورة الكهف : من الآية ٨٣ .

وترى الدكتورة عزة الغنام أن القصة " كانت موجودة فى الأخبار والنوادر وكذلك ظلت فى كتب الأمانى والمجالس وموسوعات الأدب ، التى يوضع فى مقدمتها كتاب الأغانى ، وكتاب العقد الفريد " [١].

وها هو الجاحظ فى كتابه " البخلاء " يستخدم لفظ " القصة " ، على سبيل المثال (قصة أسد بن جانى ...) [٢] ، (قصة تمام بن جعفر ...) [٣] ، كما استخدم لفظ (الحكاية ...) [٤].

أما صاحب الأمالى فاستخدم لفظ " الحديث " بدلاً من لفظ القصة ، فنجد لفظ الحديث دالاً دلالة واضحة على أن المقصود هو معنى القصة فنجد عنده " حديث الأعرابى الذى اشترى خمراً بجزة صوف وما حصل بينه وبين امرأته ... " [٥] "حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان ... " المصدر السابق ، ص١٥٩ والكتاب فى عمومه مجموعة من الأحاديث والأخبار التى تأخذ شكل السرد الحكائى .

وابن قتيبة - أيضاً - ورد عنده لفظ " القصة " ؛ إذ قال : " وهذه عندى قصة الكميت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب ... " [٦].

وصاحب كتاب " حلبة الكميت " ورد عنده : " وحكى ... " [٧] ،وكذلك: "ويحكى ... " [٨].

[٨].

١- دكتورة عزة الغنام ، الفن القصصى العربى القديم ، (القاهرة ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ م) ، ص ٥٥

٢- الجاحظ ، كتاب " البخلاء " ، شرح : أحمد العوامرى ، على الجارم ، ط ١، (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م) ، جـ٢ ، ص ٣ .

٣- المصدر السابق ، ص ٤ .

٤- نفسه ص ٤٩ .

٥- أبو على القالى ، " كتاب الأمالى " ، ط ٢ ، (بيروت ، دار الجيل ،١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م) ، جـ١ ، ص ١٥٠ .

٦- ابن قتيبة ، " الشعر والشعراء " ، تحقيق دكتور مفيد قميحة ، ط ٢ ،(بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ م) ص ٣٠ .

٧- شمس الدين النواجى ، " حلبة الكميت " ، (القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، " سلسلة " الذخائر " ١٩٩٨ م) ، ص ١٥ .

٨- المرجع السابق ص ٢٢ .

وبهاء الدين العاملى فى كتابه " الكشكول " ورد عنده : " حكى ... " فى أكثر من موضع ، نجد – مثلاً – عنده : " حكى أن بعض الزهاد ... " [١]" حكى الأصمعى ... " [٢] .

وقد تسربت مثل هذه الألفاظ إلى الحكايات الشعبية ، على اعتبار أن الحكايات الشعبية كانت فى الأصل ، مأثورات قديمة ، ثم تناولتها العامة بالحذف والإضافة والقطع والوصل وترك الإعراب ؛ باستخدام الدارج من الكلام .

نجد ذلك فى أكبر أثر للحكايات القديمة وهو كتاب " ألف ليلة وليلة " ، فكل ما ورد فيه ورد تحت مسمى " حكاية " مثلاً : " حكاية الملك شهريار ... " [٣]، " حكاية الثور مع مع الحمار ... " [٤] ، " حكاية التاجر مع الجن ... " [٥]، ثم نجد فى أثناء ذلك لفظ القصة صراحة من ذلك : " قصة الحاسد والمحسود " [٦] ، " قصة التفاحات الثلاث ... " [٧] وغيرها وغيرها من العناوين .

كل هذه الإشارات اللفظية تدل على أن العرب كان لديهم أشكال قصصية ، وإن كانت فى ثوب من البساطة والفطرة ، وهو ذات المعنى الذى أشار إليه أستاذنا الدكتور عبد الحميد إبراهيم حين تكلم عن قصص المحبين فى كتابيه " قصص العشاق النثرية " و " قصص الحب العربية " .

ففى مقدمة كتابه الثانى نجده يقول : " لست أعنى بالقصة المعنى الذى أراده بو *Poe* السيد الأول للقصة القصيرة ... " ، كما نجده يقول فى موضع آخر : " وأعنى بتلك

١- بهاء الدين العاملى ، الكشكول ، تحقيق : الطاهر أحمد الزاوى ، (القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة " الذخائر " ، ١٩٩٣ م) ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .
٢- المرجع السابق ص ٣٤٨ .
٣- المصدر السابق ص ٧ .
٤- نفسه ص ١٣ .
٥- نفسه ص ٩٠ .
٦- نفسه ص ١٤٥ .
٧- دكتور عبد الحميد إبراهيم،قصص الحب العربية ،ص ١٣، وقد قدم مقصود " بو " فى ذات الصفحة وما بعدها.

القصص هذه الأخبار التى كانت تدور حول فريق من العشاق ، منهم من هو معروف مشهور... " [1] .

إذاً فالمقصود هو الأشكال الخبرية البسيطة التى لا علاقة لها بالقصة القصيرة الحديثة إلا فى استخدام السرد ، لكن القصة القديمة تستخدم السرد بالتداعى ؛ أى أن حدثاً يدعو حدثاً دون تدخل واضح من الرواة والنقلة من بعدهم ، أما القصة القصيرة الحديثة فهى " جنس أدبى يتميز بالاقتصار فى التعبير وتصوير الحدث أو اللحظة الزمنية العابرة ، بلغة وصفية درامية ، هذا الجنس الأدبى يكشف للقارىء عن وجود حدث أو شخصية ذات دلالة نفسية أو اجتماعية أو تاريخية " [2] .

والقصة القديمة – لا يظن – أنها تحمل كل هذه الأبعاد ، إذ هى صورة مسطحة لحدث بسيط ذى بعد واحد ، الهدف منه التسلية فى أحاديث السمر ، والاعتبار والتمثل فى الحوادث المتشابهة .

ما القصة " بمعنى اختراع الشخصيات وتمهيد المكان وخلق الوقائع ، ونفض الصفات على ممثليها ، على أن يتجسد كل ذلك إلى غاية واحدة ، ويدرج إلى غرض معين فذلك ما لم يعن به العرب وما لم يتوجهوا إليه " [3] .

وقد أرجع البعض ذلك التوجه عند العرب ، إلى حياتهم العقلية التى ينقصها التفكير المنظم ، والنظر العميق ، حيث يعتمد أسلوبهم على الارتجال ، وهو أسلوب لا يتناسب مع كتابة القصة وتأليفها ، يضاف إلى ذلك أنها " لم تنشأ كفن مستقل كالشعر وإنما تعلقت بأحداث أجبرتها على التواجد وأنهم لم يهتموا بهذا الفن اهتماماً كبيراً

١- المرجع السابق ص ٧ .
٢- دكتور سمير حجازى ، قاموس مصطلحات النقد الأدبى (القاهرة ، مكتبة مدبولى ،١٩٩٠ م) ص ٦٨ .
٣- دكتور مصطفى الشورى ، التراث القصصى عند العرب ، ص ٢٣ .

كالشعر " [1] . إذن فهى " لم تكن من جوهر الأدب كالشعر ... ولذلك كانت ميدان الوعاظ وكتاب السير والوصايا [2] ، وقد أسموا ذلك التوجه قصوراً .

ولكن لا يمكن وصف العرب بأن لديهم قصوراً فى بعض النواحى الفكرية ، وإنما يقال أنهم وجهوا اهتمامهم الأكبر إلى فن الشعر وهذا طبيعى إذ أن كل بيئة يختار أصحابها ما يناسبهم من الفنون ، فلا يقال قصور عقلى وإنما يقال توجه فكرى .

فقد أثبت العرب استعداداً كبيراً ، لاستيعاب ثقافات وفدت عليهم بعد الإسلام من خلال تحالفهم مع أصحاب هذه الثقافات الأخرى [3] ، من منطلق أن كل نمط فى الحياة يحتاج إلى تكوين تحالفات مع أنماط أخرى لتقوية وزيادة عدد أفراده [4]. وقد ظهر ذلك واضحاً فى نشأة الدواوين المنظمة لأمور الدولة [5] .

ويرى المؤلف أن الشعر – كفن – كان أنسب لحياة العربى ، فكل بيئة تولد فى نفوس وعقول أبنائها فناً يتوافق مع مفرداتها ، وبيئة العرب بيئة صحراوية هادئة هدوءاً لا يخترقه سوى أصوات الرياح ، وحداء الجمال ..... وغيرها من الأصوات التى صنعت موسيقى طبيعية انعكست فى موسيقى الشعر العربى .

والشعر بأوزانه وقوافيه ، هو عبارة عن تراكيب صوتية منتظمة ، مرتبطة بشعور قائلها من ناحية ، متفقة مع الطبيعة من ناحية أخرى ، ولذلك نما فن الشعر سريعاً عندهم

١- المرجع السابق ، ص ٢١ .
٢- دكتور محمد غنيمى هلال ، النقد الأدبى الحديث ، (بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٣ م) ص ٥٢٤ .
٣- دكتور معن زيادة ، معالم على طريق تحديث الفكر العربى (الكويت ، المجلس الوطنى للفنون والثقافة والآداب سلسلة عالم المعرفة) ص ١٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ .
٤- دكتور الفاروق زكى يونس ، فى تقدمة كتاب نظرية الثقافة (الكويت ، المجلس الوطنى للفنون والثقافة والآداب سلسلة عالم المعرفة) ص ١٣ .
٥- دكتور سليمان الطماوى ، " عمر بن الخطاب " ، ط ٢ (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٦ م) ص ٣٠٧ .

وإن كان هناك التفات أصيل قد حدث باتجاه القصة – فالشعر هو صاحب الفضل فى ذلك – كما يرى المؤلف – والعلة فى ذلك أن الشعراء بتميزهم دائماً محاطون بقصص تطاردهم أنى ذهبوا .

ومعنى اتجاه أصيل – أى اتجاه من داخل العربى ، إذ الأشكال القصصية الأخرى كانت وافدة من ثقافات غير عربية واقتصر جهد العربى على بعض الأخبار البسيطة الخاصة بحياته ، وتميزت هذه الأخبار بميزة دخول الشعر فيها ، فأصبح الشعر من الملامح الهامة فى القصة العربية ، هذه الملامح التى بدأت تأخذ صورة القصد الفنى بتدرج التداول بين الرواة والنقلة من ناحية ، وبين مستمعيهم وقرائهم من ناحية أخرى .